الانتفاضة والثقافة

اخي الشهيد الحبيب

لا قياس للوقت الموغل في دمك، لا حدود لزمنك. انما يقول القائلون بذهابك. يتبارى النعاة في ميدان روحك. واركن الى ضمت يتشبه بالموت ليتشبث بالحياة. الا ليت لي من حياتي ما كان لك من موتك. انني لاعتذر لمضجع راحتك بقدر اعتذاري لمرجع قلقي وشقائي. ذلك انه في الحق الحق ان الذين قتلوا في سبيل الله والوطن لا يحسبون في الاموات بل هم احياء في ضمير احيائهم ينعمون، ومخلدون عند ربهم يرزقون.

أما بعد

فقد كلفني صديق صدوق بالنظر، لأجلك، في امر يشق على النظر، لما فيه من حكمة الخالق وتدبير البشر. وما دمنا نحن الشعراء منذورين لجس المرئيات بحاسة السمع، ولتخويل القلب حق التعامل مع المجسمات ببؤبؤ الوجدان فكيف لي إذن أن اضبط انفاسا متلاحقة في وثيرة الطلقات (الرصاصية والمطاطية والبلاستيكية) وانفجارات قنابل الغاز الشعثاء، لأتحدث برصانة الباحث وأناة العالم عن اثر

الانتفاضة في ثقافتنا؟

إن تحطيم العظام وقتل الاطفال واجهاض الامهات ودفن الاحياء واقتلاع الاشجار المثمرة وتدمير المنازل واهانة الشيوخ وتجويع الرضّع واعتقال الطالبات ودفع الشبان الى الحائط واغلاق الجامعات ورفع الحواجز الاسمنتية الشائكة في الشوارع واقتحام المساجد ومصادرة الأذان وغزو المستشفيات وتحطيم اجهزة الصحفيين وضربهم ودفع عصابات لصوص الارض المسلحة للتنكيل بأصحاب الارض المسروقة وعمليات السطو القانوني المسلح وتزوير التاريخ والجغرافيا وبكاء القاتل "المتحضّر" على ضحيته "الهمجية" وولع المجرم بمكان جريمته والرد بالراجمات التكنولوجية على حجر في راحة طفل يتصدى لدبابة وحوّامة ومجنزرة، كل هذه الامور العادية والمألوفة في وطننا وزمنهم، كلها تصلح مواد اولية للنتاج الثقافي. واذا كنا قد تناولناها في اعمالنا فاننا لم نتناول اكثر مما يمكن ان يعلق بطرف الشوكة من مائدة عامرة بأطباق جسدي المطبوخ وفق قوانين "الكوشير" الالهية.

وأما بعد،

فلا يجوز لنا اقتحام هذا الموضوع (الانتفاضة والثقافة) بمنظور السبب والنتيجة. فلم تكن الانتفاضة سببا فحسب، هي نتيجة ايضا، وسيبدو ذلك واضحا اذا نحن ابتعدنا قليلا لتتسع رقعة التاريخ المنبسطة امامنا. وبالمنطق نفسه فان الثقافة ليست نتيجة فحسب، بل هي سبب، بشكل من الاشكال، وقد هالني، وأنا في غمرة اعداد انتولوجيا الشعر الفلسطيني ان الحجر والغصن وحفنة التراب والجذور والصخرة والبذرة، كلها كانت رموزا طاغية في الشعر العربي

الفلسطيني لا سيما منذ ارهاصات النتاج الثقافي الفلسطيني (الوطني-الاقليمي) في مواجهة المشروع الصهيوني الاستيطاني.

لا يجوز ولا يمكن ان تعني هذه الملاحظة تقليلا من شأن الانتفاضة في الثقافة العربية. وازعم ان الاثر الحقيقي لهذا الزلزال الذي اعاد اصطفاف طبائعنا وافكارنا بشكل ارقى، سيظهر مستقبلا. ذلك ان تعبيرنا عن اللحظة المعيشية يختلف قطعا عن انعكاسات هذه اللحظة وتداعياتها بعد عبورها. ويجوز القول ان هناك شكلين او صيغتين للتعبير عن التجربة: الصيغة الراهنة المتعاملة مع حركة التجربة وتلك الصيغة المرجأة التي تتعامل مع سكون التجربة، مع الدخان الذي يدوم طويلا وفي تشكيلات شتى بعد خمود النار. ولا مبرر للمفاضلة بين ما يكتب اليوم، في غمرة الحدث، وبين ما سيكتب او قد يكتب مستقبلا، فلكل نتاج مقوماته الفنية والنفسية. فلا تستطيع قصيدة الانتفاضة الناجزة الآن الا ان تتفجر وتتشظى على ايقاع المجابهة الدموية المشتعلة في الشوارع والساحات العامة وفي غرف النوم نفسها. اما قصيدة الشاعر في مرحلة بناء دولته المستقلة -غاية الانتفاضة- فبمقدورها ان تكون اكثر هدوءا وتأملا وتغورا للذات.

وليسمح لي بالتمييز بين "قصيدة الانتفاضة" والقصيدة عن الانتفاضة .. انهما مختلفتان قطعا، ولكل منهما جماليتها ومبررها الفني.

واذا نحن اتفقنا على ان الادب محكوم بكل ما يحيط به ويكتنفه ويتفاعل معه من مسائل الثقافة الاخرى والتي تعني الحياة برّمتها، فانه يصبح امرا ذا بال، ان نسجّل بعض الملاحظات السريعة (لا يمكن الا ان تكون سريعة) عن المتغيرات العميقة في معادلات

البنية الاجتماعية الفلسطينية ذات الاثر (وأي اثر!) في البنية النقيضة نفسها، البنية الاسرائيلية.

إذا كانت عواقب الاجتياح الاسرائيلي للبنان قد أدت الى خلخلة حقيقية في النفسية الاسرائيلية (الرسمية والشعبية على السواء)، فانه من شأن الانتفاضة ان تجهز تماما على جملة من المسلمات الاقليمية والعالمية التي طالما عرقلت خطانا وشوهت صورتنا وغنصت عيشتنا على ساحات الارض قاطبة.

اليوم، لم نعد نحن المطالبين بالبرهنة على انسانيتنا، لم نعد نحن المطالبين باقامة الدليل على تحضرنا، لم نعد ملزمين باقناع الرأي العام العالمي بان الضحية هي الضحية حقا وان الجزار هو الجزّار حقا. لم نعد مضطرين لمجابهة النيجاتيف الاعلامي والاخلاقي الذي طالما قايض المعتدي بالمعتدى عليه.

نستطيع القول ان العالم يستعيد رشده ويتحرر تدريجيا من جرعة البنج الضخمة التي حقنه بها سدنة الصهيونية والامبريالية العالمية على امتداد نيف واربعين عاما.

ونستطيع القول بوضوح وبجرأة (اذا كان ثمة داع للجرأة هنا) ان الفلسطيني تغير في عين نفسه وأن العربي تغير في عين نفسه كما أن الاسرائيلي تغير في عين نفسه، وعبر كل ذلك فقد تغير المستر عالم في نظر نفسه.

لم تعد لدى العربي شكوكه المطلقة بنفسه. ولم يعد لدى الاسرائيلي يقينه المطلق بنفسه. ولم يعد لدى المستر عالم ما كان لديه من بلادة وتجاهل وانحياز.

هل انتصر الضمير الانساني في قضيتنا العادلة؟ لا. من السابق لأوانه القول بمثل هذا النصر. الا انه منتصر في نهاية المطاف، مطاف

المعاناة، مطاف التجربة، مطاف الانتفاضة.

وتنعكس هذه الامور بجلاء تام في النتاج الثقافي العربي والاسرائيلي والعالمي.

أمتلك المثقف العربي (من خلال الانتفاضة) مادة جديدة لمعنى جديد، امتلك المصداقية الاخلاقية والسياسية والثقافية ازاء ما هو مألوف، اي ما هو ميّت في الحياة العربية والنظام العربي.

وامتلك المثقف الاسرائيلي مدى من الحرية في مواجهة القمع الروحي المزمن المفروض عليه منذ الطوفان النازي الهجمي. لم يعد مطالبا (طواعية !) بالتماثل الكامل مع سلطت (ة) ونظام (ة) وصهيونيت (ة). اصبح قادرا على النطق بلاءاته هو وعدم الالتزام بلاءات شمير وبيرس وما يمثلانه من جشع توسعي استيطاني على حساب شعبنا المنكوب.

واذا كان المثقف الأورو -امريكي ملزما بالدفاع عن اسرائيل حتى في اوج عدوانها الفظيع (حزيران ١٩٦٧) ليثبت لبيئته (وربما لنفسه ايضا) انه في المكان المناسب من الخندق الصحيح، فقد تغيرت اطراف المعادلة الآن، واصبح الموقف من الانتفاضة (اللفظة العربية الاولى في معجم لونغمان الانجليزي) هو بارومتر الصدق والشجاعة والعدالة.

أذكر، في مستهل عصر الانتفاضة، انني دعيت الى بلجيكا للمشاركة في مهرجان تضامني مع شعبنا. وحين انشد المغني البلجيكي اغنيته الفرنسية "*Intifada*" فقد بكيت. كانت الاغنية مؤثرة جدا، لكنني اعترف بأن هذا لم يكن السبب الحقيقي لبكائي.. لقد تذكرت دفعة واحدة حجيج فناني العالم الكبار الى اسرائيل وغناءهم للجنود المنتصرين على عذابنا وحزننا ودمى اطفالنا ..

تذكرت دفعة واحدة تظاهرات التضامن الثقافية في مناخ نكبتنا ونكستنا وهزيمتنا، لا مع الجديرين بالتضامن بل مع الفاتحين الذين اتقنوا غزو الضمير العالمي قبل اتقانهم غزو اراضينا واشواقنا وطموحاتنا.

كما في النظام الفلكي، كما في الاوزون والطقس، كما في معدلات البرودة والحرارة السنوية، كذلك في الانسان .. انماط وظواهر تتلاشى لتحل طرز جديدة وحالات جديدة ومسلكيات مختلفة (للافضل كما نرجو).

وإذا كانت شروط الانتفاضة محكومة الى حد ما بالموروث السلوكي والفكري فانها تفرض بطبيعتها الثورية -الجماهيرية- التقدمية شروطها هي وتقدم لنا، على طبق من سيقان الحنطة، امكانات جديدة لمفاهيم اجمل ولطقس ارقى في علاقاتنا الاجتماعية على طريق الخلاص الذي لا طريق لنا سواه.

ومن حق الانتفاضة علينا ومن واجبنا ازاءها ان نجزل لها الشكر لانها ردمت الهوة بين الشعار والممارسة وقلبت الامزجة والقناعات في شؤون شتى.

ففي الاقتصاد: تعمق الوعي في مسألة الانتاج الوطني وضرورة تحقيق الاكتفاء الذاتي. صارت بضاعة الاحتلال رذيلة لا يصح تعاطيها، وتلاشى الاحساس بتفوق المستوردات الاجنبية. وتضعضع التسليم باعتبارها محصلة الجودة العالية. وبغض النظر عن مدى "علمية" هذا التحول فانه يظل تحولا ايجابيا في المرحلة الراهنة. وكان في اقتلاع ازهار الحدائق المنزلية واستبدالها باشتال الخضار، في مواجهة الحصار الاسرائيلي، دليل يتداخل فيه الصمود المعنوي بالصمود المادي ويرقى بالنفس الفلسطينية الى افق المقاومة الشاملة

الناجزة.

وفي السياسة: تبدلت صورة الزعيم التقليدية، فلم تعد شجرة العائلة والشهادة الجامعية بين الاقانيم الاساسية للزعيم. ثم ان اللفظة نفسها تراجعت امام لفظة القائد، واصبح للزعامة مدلول يميل الى السلبية مقابل القيادة. وبرز بقوة الميل العام الراسخ للقيادة الجماعية وللعقلانية بمعناها الثوري، لا بالمعنى التبريري التراجعي.

وفي الاجتماع: تراخت الاطر العشائرية والطائفية وتحقق تماسك ملحوظ في الاطر الوطنية - القومية، وتناثرت مع أزيز الرصاص وصفير الزجاجات الحارقة ثارات قديمة، وتأكدت ضرورة ملحة للتشبث بمعنى "المصير المشترك".

وقدمت الانتفاضة لجماهيرنا درسا رائعا في الانضباطية والتفاؤل الثوري والتلاحم بين اليد واللسان والتماثل بين العقل والقلب.

كما انها أكدت مرة اخرى على ان الثقافة ليست مجرد بضاعة استهلاكية- وفق الاخلاق الرائجة في المجتمع الاستهلاكي- بل هي قطعة حياة من لحم ودم، ومدى حلم لا يعترف بالمدى.

وأما بعد، يا اخي الشهيد الحبيب،

فلا قياس للوقت الموغل في دمك. ولا حدود لزمنك. فبشّر الناهضين على الاذى المنتفضين على الضيم بأن الذين قتلوا في سبيل الله والوطن احياء عند شعبهم، راضون عند ربهم مرضيّون ولهم جنات تجري من تحتها الانهار ووطن تجري من فوقه الحياة. وشعب يَسْتَلهم ليُلهم. وبَشّر الناس قاصيهم قبل دانيهم بأن هذا الانسان جدير بهذا الوطن.

مجلة «٤٨» ١٩٨٩/٩